

الدبلوماسية والعمل الدبلوماسي في الشريعة الإسلامية

ا. د. عبد الغفور كريم على

د. شفان احمد عبد القادر

(جامعة اللبنانيه الفرنسيه/ كلية القانون و العلاقات الدوليـه)

المقدمة :

ان اتساع انتشار الاسلام في القرن السابع الميلادي و في فترة حكم الخليفة الثاني (عمر بن الخطاب) (رضي الله عنه) كانت قد ادت الى تنظيم حكومات و ادارات البلاد الاسلامية وجعل اللغة العربية لغة البلاد الرسمية بعد ان كانت الفارسية و الرومانية، وانشأ الدواوين (المصالح الحكومية)، واستعمل التقويم الهجري بدلاً من التقويم الميلادي، وترك للاهالي الانتفاع من الاراضي الزراعية مقابل دفع ضريبة (الخرج)، كما فرض ضريبة الجزية على كل شخص قادر من اهل الذمة (النصارى و اليهود) واعفى منها رهبان الاديرة و الشيوخ و الاطفال و النساء و الفقراء، فكانت الجزية مقابل ما تلتزم به الدولة الاسلامية من حماية اهل الكتاب وذلك لأنهم كانوا معفيين من الخدمة العسكرية .

ويقصد بالتمثيل الدبلوماسي في الاصطلاح العام قيام الممثل الدبلوماسي بتبيين المعلومات، والمواقف الرسمية ووجهات النظر ومصالح حكومته لحكومات الدول الممثلة فيها، والقيام بالاتصالات الرسمية وغير الرسمية نيابة عن حكومته – بالمسؤولين الرسميين في حكومة الدولة المبعوث إليها.

وقد اجمع العلماء على مشروعية التمثيل الدبلوماسي استناداً إلى نصوص القرآن و السنة وامتثالاً لحكمهما، فوضعوا قواعد تفصيلية لامان السفراء تيسيراً لعملية التمثيل الدبلوماسي .

وقد كان الرسول(صلى الله عليه وسلم) حريصاً على حماية المبعوثين في ناسبات عديدة ومن ذلك: روى ابن مسعود انه قال : جاء ابن النواحة وابن الاشال رسولاً مسليمة الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال لهم : اتشهدا اني رسول الله . قالا: نشهد ان مسليمة رسول الله ! فقال الرسول(صلى الله عليه وسلم) : آمنت بالله ورسوله لو كنت قاتلاً رسولًا لقتلكما ، قال ابن مسعود: فمضت السنة ان الرسل لا تقتل .

هذا الحديث يدل على عصمة دم المبعوث الدبلوماسي، وصيانته شخصه من كل اذى حتى لو اختلفت وجهات النظر في المفاوضات .

وقد اتفق الفقهاء على ان الرسل (الدبلوماسيون) لا يقتلون لأن امانهم ثابت دون عقد الامان كما قال ابو يوسف في حرمة الدبلوماسي (ولاسبيل عليه ولا يتعرض له ولا لما معه من المئع و السلاح و الرقيق و المال، كذلك لو ان المسلمين اسرؤ سفينة في البحر وقال نفر من ركبها نحن رسل بعثنا الملك فلا يتعرض لهم احد ويقول السرخيسي في هذا الموضع او الامر (ولو ان رسول ملك اهل الحرب جاء الى عسكر المسلمين فهو آمن حتى يبلغ رسالته) وكذلك قال (فإن الرسول آمن من الجانبين، هكذا الرسم في الجاهلية و الإسلام)

وقد عنى الحكماء باهمية التمثيل الدبلوماسي فقالوا: ثلاثة تدل على ثلاثة: الهدية على المهدى ، والكتاب على الكاتب، و الرسول على المرسل) وقد قال حسن بن عبد الله : (كتاب الملك لسانه ورسوله ترجمانه^(١) .

وقد وظف المسلمون التمثيل الدبلوماسي للتقرير بين الشعوب و الحوار بينها ومن خلال التاريخ الطويل لممارسته لم يرد في المصادر الاسلامية ما يفيد انكار عالم من العلماء له او عدم التعویل عليه في العلاقات الدولية اثناء الحرب و السلام ويدل على هذا انعقاد الاجماع السکوتی حول اعتماد المسلمين للتمثيل الدبلوماسي بوصفه ضروراً من ضرورة الاتصال و التعامل في العلاقات التي تكون بين المسلمين وغيرهم، ويشهد بهذا ما جرى عليه الحال منذ صدر الاسلام وحتى يومنا هذا . ومع ايفاد السفراء من غير انكار، فصار ذلك اجماعاً على مشروعية التمثيل الدبلوماسي.

أهمية البحث :

ان اهمية الموضوع المطروق متأتی اساساً من اهمية التمثيل الدبلوماسي في العلاقات بين الامم والدول وبين الدبلوماسية والقانون الدولي العام

ويعد التمثيل الدبلوماسي في القانون الدولي مظهراً من مظاهر استقلال الدولة وسيادتها ويدل على اثبات الشخصية القانونية للدولة او للوحدة الدولية المعينة وتساويها مع بقية الوحدات او الدول لذلك فليس للدول ناقصة السيادة ان تمارس ايقاد البعثات الدبلوماسية^(٢) .

وبناءً على هذه الاهمية للتمثيل الدبلوماسي في النظام الاسلامي و القانون الدولي يجب علينا ان نعرف اغراضه والمقارنة بينهما .

اشكالية البحث:

يعد البحث وبسبب المتغيرات الدولية المتلاحقة ومنذ القرون السابقة وكثرة الصراعات العالمية والاقليمية وحتى بين الدول البسيطة، كانت قد شاعت صراعات بين الامم مما ادى الى افول كثير من الحضارات ويزوغر حضارات جديدة اصبحت تهيمن على السياسة الدولية كما هو الحال بالنسبة للحضارة الغربية في ايامنا العاصرة .

وكانت الحضارة الاسلامية مسيطرة على الشؤون العالمية لفترة دامت طويلاً وتبنت منهاجاً دبلوماسياً معروفاً حتى زوال الدولة العثمانية وبزوالها أفل الدور المميز للإسلام عالمياً .

ومما زاد اشكاليات البحث ان الدور الاسلامي ايامنا العاصر ليس كما كان في عهوده السابقة بسبب ظهور القوانين الوضعية في الحقل الدبلوماسي وحقل السياسة الخارجية .

فرضية البحث : تقوم فرضية بحثنا هذا على اعتبار ان التقارب بين الدبلوماسية في قواعد الفكر الاسلامي الحنيف وبين القانون الدولي الكثير من القواعد المشتركة وكل ما يخص المراسلات والمعاهدات الدبلوماسيين بشكل يدعوا الى ان التوائم

(١) الملك لسانه ورسوله ترجمانه: نقلأً من شوقي ابو خليل "الحضارة العربية الاسلامية، منشورات كلية الدعوة الاسلامية، طرابلس، ١٩٩٣، ص ٢٠٩.

(٢) عصام العطيه: القانون الدولي العام، الطبعة السادسة، دار الحكمة، بغداد، ١٩٩٥، ص ٥٥.

والتلامح في المفاهيم والمصطلحات والقواعد تكاد تكون معتمدة على بعضها علما ان الاسلام سبق مؤتمر (فيينا) بمئات السنين.

منهجية البحث:

اعتمد البحث على المنهجية التاريخية التحليلية المقارنة مع قواعد الدبلوماسية المعاصرة .

هيكلية البحث :

مما تقدم تم تقسيم البحث الى :

المرحلة الاولى/الدبلوماسية في عهد الرسول محمد ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين من بعده وقد ضمت هذه المرحلة :

١- عهد الرسول محمد ﷺ .

٢- عهد الخليفة ابو بكر الصديق رضي الله عنه

٣- عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

٤- عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه

٥- عهد الخليفة علي بن ابي طالب

المرحلة الثانية / الدبلوماسية في عهد الخلافة الاموية (١٣٢-٤١ هـ)

المرحلة الثالثة/الدبلوماسية في الخلافة العباسية .

واخيرا يتضمن البحث خاتمة .

ولواصلة المقدمة نذكر ان البعثة البلوماسية تقوم باغراض شتى: كحماية مصالح الدولة المعتمدة ورعاياها ومصالح رعاياها، وتعرف ظروف الاحداث في الدول المعتمدة لديها وتطورها بكل الوسائل المعروفة واعداد التقارير عن ذلك لحكومة الدولة المعتمدة، وتهيئة علاقات الصداقة وتنمية العلاقات الاقتصادية والثقافية والعلمية بين الدولتين .

وقد تتغير هذه الاغراض بتغير الظروف وتدخل بعض الامور الجديدة فيها، وفي هذه الدراسة سنستعرض مع المقارنة بين القانون الدولي والنظام الاسلامي في هذا المجال .

اغراض التمثيل الدبلوماسي في النظام الاسلامي

أ- حماية مصالح الدولة الاسلامية : والتي تشتمل على:

١- نشر الدعوة الاسلامية

٢- التهنئة و التعزية

٣- الزواج، وكان هذا التمثيل يهدف الى تقارب الشعوب من خلال المصاهرة بين الملوك.

٤- تبادل الهدايا

بـ التعاون الدولي: ويشتمل على:

- ١- التعاون الثقافي
- ٢- التعاون السياسي والعسكري
- ٣- التعاون الاقتصادي
- ٤- فض النزاعات وتسوية المشكلات

جـ تتابع الحوادث: والهدف منه :

- ١- جمع المعلومات
- ٢- التجسس

٣- مراقبة تبادل الاسرى و الفدية و التعويضات .

أما في القانون الدولي فالدبلوماسية و التمثيل الدبلوماسي، تشمل على:

أـ حماية مصالح الدولة^(١):

- ١- مهام قنصلية
- ٢- رعاية مصالح الدولة التي قطعت علاقتها مع الدول المستقبلة .
- ٣- رعاية مصالح الدولة التي ليس لها علاقة مع الدولة المستقبلة .

بـ تتابع الحوادث :

- ١- جمع المعلومات واعداد التقارير
- ٢- القيام بالاتصالات الرسمية
- ٣- تحليل المعلومات المتجمعة

جـ فض المنازعات وتدعم حسن العلاقات بين الدول :

- ١- المساعي الجميلة و الوساطة
- ٢- تنمية العلاقات الثقافية و العلمية
- ٣- تنمية العلاقات التجارية و الاقتصادية

^(١) عصام العطية:المصدر السابق,ص ٧٥.

اغراض التمثيل الدبلوماسي في النظام الاسلامي والقانون الدولي

- ١- حماية المصالح الوطنية
- ٢- التعاون الدولي
- ٣- تتبع الحوادث
- ٤- تنظيم العلاقات بين دولة المقر و الدولة المستقبلة .

الدبلوماسية والعمل الدبلوماسي في مراحل الحكم الاسلامي

مرت الدبلوماسية في الشريعة الاسلامية بمراحل عدة، ومنذ القدم، ونوجزها على النحو التالي :

المبحث الأول

عهد الرسول محمد ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين ١٤٠-١ هـ :

الدبلوماسي العربي الناشئ في حاجة الى معرفة ما كانت عليه الدبلوماسية العربية والاسلامية في الماضي . وبالتالي فإنه يحتاج المزيد من القراءة والاطلاع والبحث على ذلك العلم ، الذي يؤرخ له بميلاد هذه الامة ودخولها دين الاسلام على يد مؤسسها الذي اختاره الله تعالى نبيا لها والتي وصفها خير امة ((كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)) ^(١)

كما كان النبي محمد ﷺ آخر الانبياء وهو الذي تمكّن باسلوبه وفضائحه ورجاحة عقله من نشر الدين الجديد بين اسرته وقبيلته اولا ثم القبائل والدول المجاورة ثانيا والتي صدقت وآمنت بالنبي محمد ﷺ وارتضت بالله ربا وبالاسلام دينا وبالرسول محمد نبيا فدخلت في الاسلام تباعا بعد ان كانت تعنق المسيحية او اليهودية او الوثنية ، سواء من قبل او من بعد ميلاد المسيح عليه السلام في بيت لحم ، حتى ميلاد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب يوم الاثنين ١٢ ربيع الاول عام ٧٥٠ م بمكة المكرمة ^(٢) .

وهكذا فانتا في العالم العربي والاسلامي نؤرخ بداية التاريخ الاسلامي الهجري باول العام الذي هاجر فيه الرسول محمد ﷺ من مكة الى المدينة الذي يسمى عام الهجرة والذي يزامن ٦٢٢ م .

واما الوحي فمن المعروف انه نزل على الرسول الكريم محمد ﷺ وهو في الأربعين من عمره وكان ذلك في ١٧ رمضان عام ٦١٠ م عندما كان الرسول منعزلاً متوجهًا في معكه في غار حراء والذي كان يعتكف فيه حتى نزل عليه الوحي من العلي القدير ^(٣) .

واذا كانت الدبلوماسية البيزنطية والرومانية والفارسية الشرقية والغربية والاغريقية، قد استوطنت عواصم تلك الدول وتوسعت في اوربا فان يشرب المدينة المنورة اصبحت عاصمة الدول العربية والاسلامية ^(٤)، وتمكن فيها الرسول

^(١) سورة آل عمران /القرآن الكريم ، الآية ١١٠

^(٢) البروفيسور الدكتور ابراهيم الزلمي: اصول الفقه في نسجه الجديد ، الطبعة ٢٢ ، مطبعة شهاب-أربيل، ٢٠١٠، ص ٣٥٥.

^(٣) الزلمي:المصدر السابق، ص ٤٠٤

^(٤) أ.د. حسن سليمان:ال الحرب والسلام بين النظم الغربية والاسلام، مجلة كلية التجارة و الاقتصاد ، منشورات جامعة صنعاء ، (ع ١٠) ، مارس، ١٩٩٨، ص ٢٣٢.

محمد بن عبد الله من تأسيس الدولة الإسلامية فيها ووضع منهج فكري وحضاري للدولة على الصعد كافة . وارتکز في ذلك على قول الله تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ان ربک هو اعلم بمن ضل عن سبیله وهو اعلم بالمهتدين)^(١)، وهكذا فإن الدبلوماسية العربية والاسلامية بدأت كدبلوماسية دولة في المدينة المنورة وما جاورها من قبائل الجزيرة العربية وبعدها إلى بقية الدول والأمصار.

وبعث النبي الكريم برساله ورسائله الى ملوك وقادة وقادة وقياصرة تلك الدول داعياً اياهم للدخول في الاسلام دين الحبة ولعدل باعتباره آخر الديانات السماوية والمكمل والمصدق لمن سبقة من الرسل وما ارسلوا به من ديانات، وان الدين الجديد اقل ذي يدعو اليه هو دين العدالة والمساواة، وان الناس مهمماً اختلاف جنسياتهم فانهم متساوون في ظل الدين الاسلامي ولافرق بين اعجمي او عربي الا بالتقوى (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله انتقامكم ان الله علیم خبیر)^(١).

ويجدر القول ان المصادر الغربية اغفلت دور الدبلوماسية العربية الاسلامية، الا اننا باعتزاز وفخر نؤكد عظمة تاريخنا على الرغم من افتقار المكتبة العربية للمخطوطات و الوثائق التي نشهد بها على الرغم من ان الدبلوماسية ظلت ملزمة لتطور المجتمع العربية مكاناً وزماناً .

يتضح لنا ذلك من خلال تطور قنوات ومصادر الدبلوماسية والتي تتغير من حين الى اخر وبصورة عامة نحو الاحسن والافضل.

وكما هو معروف، فإن الدبلوماسية في العصر الجاهلي كانت تقوم على أساس المصالح والعلاقات التجارية المتبادلة بين القبائل المجاورة والتي كانت ترتبط مع الدول المجاورة الأخرى، بهدف تسهيل المعاملات التجارية، فكانت قبيلة عدي من القبائل العربية الأكثر قوة ونشاطاً في قريش، واشتهر عمر بن الخطاب، سفير بنى عدي، وكذلك في الجahلية تم الدخول في مفاوضات بين عبد المطلب بن هاشم وابرهة الحبشي لاسترداد الإبل التي استولى عليها جيش ابرهة الغازي.

اما الدبلوماسية الاسلامية التي قد بدأت في عهد الرسول محمد فانها تطورت الى مفهوم ديني اخلاقي ارتبطت بقيام دولة الاسلام بابعادها السياسية والاجتماعية والدينية. وعن طريق الدبلوماسية التي اخذتها الرسول الكريم ﷺ، اسلوبا لنشر الاسلام وتيسير قبوله، بعد ان طبق الرسول مفاهيم الاسلام القائمة على الود والتفاهم وحسن معاملة الاسرى، واجراء المفاوضات، واحترام الرسل وحمايتهم ومنحهم الامان والحسانة وعقد هدنة بين المتحاربين في سبيل اطاحة الفرصة للمزيد من التفاهم وحل المشاكل سلميا⁽³⁾. وكذا لعقد المعاهدات مع اليهود مثل المعاهدة التي اجرتها مع يهود المدينة، بعد هجرته اليها يوم الجمعة الاول من محرم السنة الاول للهجرة النبوية عام 622م. وفي تلك المعاهدة ترك لانبي اليهود مطلق الحرية في شؤونهم الدينية والمالية اسوة بال المسلمين، وكان هم النبي توفير الامن والسلام والاستقرار كذلك تنظيم علاقاته بغير المسلمين، حتى تتمكن الدولة الاسلامية من توطيد اركانها، وقراءة متأنية لبنود صلح الحديبية⁽⁴⁾، يتم التعرف الى كيف تمكّن الرسول ﷺ من وضع ضوابط الحسانة الشخصية والحماية للمبعوثين، فقبل صلح الحديبية لم تكن قريش تعترف بال المسلمين وطلت بذلك جهدها في سبيل استئصال جذورهم، الا ان الصلح جعل تلك

(١٢٥) سورة النحل, الآية (١)

(١٣) سورة الحجرات، الآية (١٣)

^(٢) الزلمي:المصدر السابق,ص ٤٩٩

^(٤) للمزيد: راجع محمد احمد باشميل: غزوة خير، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٧١، ص ٨٥-٩٢.

المحاولات تفشل الامر الذي اضطرها ان تعرف بال المسلمين في آخر الامر ، فالصلاح مكن العديد من المسلمين من الاعلان الصريح لدخولهم في الاسلام واظهار ردينتهم بصورة علنية بعد تواريهم، ودخلت قبيلة خزاعة كلها في عقد الرسول الكريم ، لأن اهداف المسلمين الذين آمنوا وصدقوا بالرسالة التي حملها واشعل نورها محمد بن عبد الله ، لم تكن تهدف الى مصادرة اموال او ابادة ارواح او اباحة اعراض ، او اكراه احد لاعتناق الاسلام ، بل قد كان الهدف الوحيد هو منح الحرية الكاملة للناس في اختيار العقيدة الدينية و التمييز بين الحق والباطل والغاء الفوارق بين الناس^(١).

الامر الذي مكن الاسلام من الانتشار خاصة بعد ان فتح المسلمين مكة في السنة الثامنة للهجرة ،عندما حشد الرسول جيشاً من عشرة الاف مقاتل من اهل المدينة وماجاورها فكان ذلك هو الفتح الاكبر والمعركة الفاصلة بين المسلمين والشركين وقد تاكد لاهل مكة ان من يسيطر على الحرم هو من يملك الحكم فيها .

وبعد الفتح ،انتشر الاسلام بصورة واسعة و على اثر هدنة الحديبية التي تمت في ذي القعده من السنة السادسة للهجرة، نزلت سورة الفتح، اما سبب صلح الحديبية فقد جاء بعد اثر بيعة الرضوان للرسول محمد ﷺ عندما بايعه اصحابه على الموت في سبيل الله بعد ان شاع قتل قريش لرسول محمد (عثمان بن عفان) الذي اوفده الى قبيلته(قريش) ليهني لهم ان المسلمين لا يرغبون في محاربتهم وانما جاءوا الى مكة لاداء الحج تلبية لما رأه النبي محمد بأنه دخل هو واصحابه المسجد الحرام آمنين.

وعندما دخل المسلمون مكة وحطموا الاصنام حولها والتي كانت تبلغ ٣٦٠ صنماً^(٢) ، فكان ذلك هو الفتح الاكبر والمعركة الفاصلة بين المسلمين والشركين ومنح الرسول اهل مكة العفو ،وقال قوله الشهيرة :لاتشرب عليكم اليوم ،اذهباوا فانتم الطلاق^(٣) .

واثناء غزوه الفتح الاعظم حدثت قصة ابي سفيان الاموي (سيد بنى كنانة) مع ابنته ام حبيبة زوج رسول الله ،ومع ابي بكر وعمر بن الخطاب و الامام علي وزوجته فاطمة الذين طلب منهم ان يشفعوا له عند الرسول ،فامتنعوا الى ان وافق العباس بن عبد المطلب على مرافقته ،وجاء به الى الرسول من غير عهد او عقد كما قال عمر وبعد حوار ابي سفيان والنبي محمد قال الرسول فكان ذلك هو الفتح الاكبر والمعركة الفاصلة بين المسلمين والشركين :ويحك يا ابا سفيان ،لم يأن لك ان تعلم اني رسول الله ؟ ،قال :بابي انت وامي ،ما احلتك وما اكرمتك و اوصلتك .اما هذه ففي النفس حتى الان منها شيء . فقال له العباس : ويحك اسلم قبل ان يضرب عنقك ،قال :فشهاد شهادة الحق فاسلم ،فقال العباس مخاطبا الرسول : ان ابا سفيان يحب الفخر فاجعل له منه شيء ،قال نعم ،من دخل دار ابي سفيان فهو آمن ،ومن اغلق عليه بابه فهو آمن ،ومن دخل المسجد فهو آمن^(٤) ،وعندما دخل محمد فاتحاً مكة مضى ابي سفيان حتى جاء قريش وصاح بهم: هذا محمد قد جائكم بما لاقبتم له ، حينها تفرق الناس الى دورهم وآل المسجد ودخل النبي مكة من اعلاها وامر خالد قد خلها من اسفلها^(٥) :وقال قوله الشهيرة ،ان عرض لكم احد من قريش فاحددوهم حصداً حتى توافقونى على الصفاء .

(١) شوقي ابو خليل :الحضارة العربية الاسلامية مصدر سابق،ص ٣٦٠.
(٢) مجيز الدين الحنبلي :الانس بتاريخ القدس والخليل،بيروت،١٩٧٣،ص ٢٠٧.

(٣) المصدر نفسه،ص ٢٠٨.

(٤) مجيز الدين الحنبلي:مصدر سبق ذكره،ص ٢٠٣.

(٥) مجيز الدين الحنبلي:المصدر نفسه،ص ٢٠٧.

حينها تاکد لاهل مکة ان من يسيطر على الحرم هو من يملك الحكم في وقد انتشر الاسلام بعد الفتح بصورة واسعة ورد النبی ﷺ قوله : لا اله الا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده واعز جنده وهزم الاحزاب وحده .

اولاً: الحصانة والحماية للمبعوثين الاجانب

لقد سبق النبی محمد ﷺ غيره في هذا النمجال فقد اعتمد في معاملته وعلاقته مع الاخرين كتاب الله واحلاق الشريعة الاسلامية .

وفي هذا المجال عامل المؤذين له بالاحترام وكان يزودهم باتلهاديا عن مخادرتهم له , كما فعل مع مبعوث كسرى وغيره , فضلا عن حمايتهم وحسن وفادتهم ووصى اصحابه ان يقتدوا به ففي عام الوفود على سبيل المثال (٦٣١-٦٣٠) منح الرسل الاجانب الامان وقدم لهم الحماية والضيافة ووفر لهم سبل الراحة والحسانة الشخصية التي يتمتع بها اي مبعوث او موقد في عصرنا فعلى الرغم من تطاول بعض المؤذين اليه من قريش ، التي تحاربه وتعاديها الا انه لم يمسهم بسوء بل انه اكرم الوفود العربية المختلفة وانزلهم المكانة الرفيعة التي تليق برسل الملوك واتلامراء هذه المعاملة وهذا الاسلوب اديا بالملوك واتبعهم الى الدخول في الاسلام الذي لم ينتشر عن طريق الحرب بل عن طريق الدعوة والحوار ^(١) .

وقد مثل عام الوفود مناسبة عظيمة وكبيرة بالنسبة للمسلمين ، لأن الوفود جاءت من جميع أنحاء الجزيرة العربية لتعلن اسلامها .

وظهرت لأول مرة علامات الوحدة الدينية والسياسية بين المسلمين على الرغم ان الرسول وهو يؤسس ويبني الدولة الاسلامية ، حرص على وضع المبادئ والقوانين التي لم يحد عنها اصحابه وامته من بعده ومع ذلك فقد تعرض الى العديد من الاساءات والاخطراء منها :

ان سفير دولة اجنبية قابل الرسول وتغدو بكلمات قذف في حق الرسول وفي حق الاسلام الا ان رد الرسول ﷺ كان : لولا انك مبعوث لامرتك ، أما الحادثة الاخرى فهي مع موفدي مسيلمة الكاذب ؛ مسيلمة بن ثامة زعيم بني حنيفة ، الذي ادعى النبوة وانه شريك مع النبي محمد ﷺ وقد قتل في عهد ابي بكر الصديق على يد وحشی قاتل الحمراء بن عبد المطلب . فعن ابن مسعود انه قال : جاء ابن النواحة وابن آثال رسول مسيلمة الى النبي محمد ﷺ فقال لهم : اتشهخان اني رسول الله ؟ فقالوا : نشهد ان مسيلمة رسول الله . فقال الرسول محمد : آمنت بالله ورسله لولا ان الرسل لاتقتل لضربي عنقي كما ^(٢) .

ذلكم كان اسلوب النبي محمد ﷺ وتلك هي الدبلوماسية التي اتبعها سواء عند ايفاده للرسل او عند استقباله للوفود ومبعوثي الدول الاجنبية وعلى العكس فان بعض الدول الاجنبية كانت تعامل مبعوثي الرسول ﷺ بمعاملة سيئة ، فعلى سبيل المثال ، مرق ملك الفرس خطاب الرسول ﷺ وداسه بقدمه ، وقد تمكן المبعوث من الفرار ،اما مبعوث الرسول ﷺ الى الحاكم الروماني بالبصرة فقد قتل . وهذه العاملة تختلف كلها عن معاملة الدولة الاسلامية للرسل ومبعوثي الدول ، التي وفرت لهم الحماية والحسانة سواء في عهد مؤسس الدولة الاسلامية محمد ﷺ او في عهد الخلفاء الراشدين من بعده وقد تجلت سياسة الحكم في رسائل الرسول المرسلة الى الملوك والامراء في الدول الاجنبية والتي

(١) الزلمي:المصدر السابق،ص ٢٠٨.

(٢) د. علي حسين الشامي:الدبلوماسية نشأتها وتطورها وقواعد نظام الحسانات والامتيازات الدبلوماسية،دار العلم للملايين،بيروت،لبنان،ط٢،يناير،١٩٩٤،ص ٥٤٠.

تضمنت الدعوة لدخولهم الاسلام، واستهل الرسول ﷺ معظم رسائله بقوله تعالى : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلْمَةٍ سَوَاءَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ لَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نَشْرُكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَخَذُ بَعْضُنَا بَعْضًا اَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تُولُوا فَقُولُوا إِشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) ^(١).

ثانياً: مقومات الدبلوماسية الاسلامية :

من الطبيعي الاشارة الى ان الدبلوماسية الاسلامية التي بدأها الرسول محمد ﷺ، غايتها ومصدرها نشر مبادئ انسانية قائمة على المحبة والعدالة والمساواة، هذه المبادئ العظيمة هي التي انارت الطريق للفتحات والاتصالات التي قامت بها الدولة الاسلامية الجديدة مع الدول المختلفة، لأن اهداف الاسلام واهداف المسلمين لم تكن مصادرة اموال احد او انتهاك عرض او اكراه الاعداء على اعتناق الاسلام بل كان هدفها الوحيد منح الحرية لجميعبني البشر، في العقيدة والدين، الامر الذي مكن الدين الاسلامي من الانتشار عاماً بعد الآخر، وتشير المصادر الى ان عدد المسلمين كان قبل صلح الحديبية لا يتجاوز الثلاثة الاف مسلم، وعند فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة تجاوز عددهم الى اكثر من عشرة الف مسلم وظل في تزايد بطريقة هي الاولى من نوعها في تاريخ البشرية، وهؤلاء هم الذين ربطوا حياتهم بمحمد ﷺ، مما اطلق سيادة قريش ومن جاورها، وهم الذين ظلوا يتربصون له علهم يطفئون نور الاسلام وحامل مشعله، الا ان الذي اوحى اليه رسالة الاسلام وتبلغها كان له حافظاً وناصراً وهادياً، مما يجعلنا ننكر الرواية الغريبة القائلة بان العرب قسموا العالم الى دار سلام ودار حرب فالحقيقة غير ذلك، اذ ان هدف الدبلوماسية الاسلامية هي اقامة علاقات طيبة مع دول الجوار على اساس الود والتفاهم والمصالح المشتركة ^(٢).

وخير دليل على ذلك الماحدات والاتفاقيات التي ابرمها النبي ﷺ مع غير المسلمين بدأها برسالة رسالته الى الملوك والامراء، اما الحرب، فلم يشنها الرسول ﷺ رغبة في الحرب، اما كانت فقط دفاع عن النفس، ودفع الظلم والجور، والقضاء على الفتنة، كذلك حماية القيم الاسلامية والحضارية .

وقبل الحديث عن سفراء الرسول ﷺ الى ملوك وامراء الدول الاجنبية، فجدير بالذكر ان الرسول ﷺ اوفد عثمان بن عفان سفيراً له الى قريش، حيث عشيرته بها وقال له : (اخيرهم انتا لم نات لقتال، وانما جئنا عمارة، وادعهم الى الاسلام، وان الاسلام هو دين رحمة وتراحم، ليس فيه جبروت ولاعنف ولااضطهاد او تعسف) ^(٣).

فقبل الاسلام كانت هناك روابط بين قريش قبيلة النبي ﷺ وبقية القبائل التي كان لها هي الاخرى علاقات وطيدة مع البلدان المجاورة .

ومثلاً كاتب الرسول الملوك والامراء في البلدان الاجنبية قاتله قد كاتب ايضاً القرىبيين منه، وهي القبائل والدول المجاورة، فبعد عودته الى المدينة اواخر السنة الثامنة للهجرة ومطلع السنة التاسعة، بعث بالصدقين الى القبائل ومن ضمنهم المهاجر ابن ابي امية المبعوث الى صنعاء والذي خرج عليه الاسود العنسي، الذي ادعى النبوة .. والذي قتل على يد فیروز قبل وفاة النبي ﷺ يوم وليلة فاتحه الوفي ليبلغه بذلك .

(١) سورة آل عمران، الآية (٦٤)

(٢) شوقي ابو خليل:المصدر السابق، ص ٣٥.

(٣) شوقي ابو خليل:المصدر السابق، ص ٢٤٠.

كما كان من ضمن المبعوثين المصدقين علي بن ابي طالب - كرم الله وجهه - مبعوث النبي الى نجران، وكان هدف الرسول من ذلك :

- ١- انه ارسل رسلا في سفر طويل وناجح وذلك بعد معارك وغزوات ادت الى نشر الاسلام وفتح مكة .
- ٢- جاءت هذه الوفود بمناسبة عودته الى المدينة، بعد ثمانية اعوام من مغادرته لها ، يوم استقباله في السنة الاولى مهاجرا خائفا، واستقباله هذه المرة بعد ان دانت له مكة وقبيلة قريش وبعد ان اعز الله مكة بالاسلام .
- ٣- مثل ذلك نجاح الدعوة الاسلامية، وفتح مكة، ودخول الناس الدين الاسلامي .

ثالثاً: رسول النبي ﷺ ومبعوثوه الى القبائل العربية والدول الاجنبية :

كان الهدف من رسائل الرسول وايفاده مبعوثين الى ملوك وامراء الدول الاجنبية، دعوتهم للدخول في رحاب الدين الاسلامي، بالإضافة الى تقوية وتوطيد علاقات الدولة الاسلامية بالدول المجاورة. بينما كان هدف السفارات المضادة عرقلة نشر الدعوة الاسلامية كما حدث مع عمرو بن العاص قبل اسلامه، الذي اوفدته قريش الى النجاشي في الحبشة بهدف اقناع النجاشي برد المسلمين المهاجرين، وقد اخفق عمرو بن العاص في محاولته فشلا ذريعاً بعد ان حاول اقناع النجاشي برد المسلمين المهاجرين، وعلى الرغم من ذكائه وحدة لسانه ومهاراته الا انه لم ينجح باقناعه، بينما تمكّن جعفر بن ابي طالب من اقناع ملك الحبشة الذي تسلم كتاب النبي ﷺ من عمرو بن امية الضمري، فوضعه النجاشي على عينيه ونزل عن سريره الى الارض، فاسلم الى جعفر بن ابي طالب ابن عم النبي ﷺ، وشقق على بن ابي طالب - كرم الله وجهه، بعد ان تمكّن من اقناع النجاشي بمبادئ الاسلام، وعندما توفي النجاشي السنة التاسعة للهجرة نعاه النبي ﷺ، وصلى عليه صلاة الغائب. وهنا نورد بعضًا من رسائل النبي محمد ﷺ التي بعثها الى عدد كمن ملوك وحكام القبائل العربية والدول الاجنبية^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من محمد رسول الله الى الحارث بن ابي شمر

سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدق، فاني ادعوك الى ان تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك .

رابعاً: ارسال الوفود الى اهل الكتاب:

بعث الرسول الكريم العديد من الوفود الى حكام البلدان المجاورة من اهل الكتاب، كبعثة عمرو بن امية الضمري الى نجاشي الحبشة، وبعثة حاطب بن ابي بلتعة اللخمي الى المقوس حاكم الاسكندرية، وحرص على مخاطبتهم باسلوب يختلف عن اسلوب مخاطبته لحكام الفرس والروم، فقد جاء في رسالته الى النجاشي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من محمد رسول الله الى النجاشي عظيم الشأن:

(١) نقل من كتاب الدكتور عطا محمد صالح:في النظرية الدبلوماسية،منشورات جامعة قارينوس،بنغازى،ط١،١٩٩٢،ص١٩١-١٩٣.

سلام على من اتبع الهدى... اما بعد فاني احمد اليك الله الذي لا له الا هو الملك القدس السلام المؤمن المهيمن، وشهاد ان عيسى بن مرريم روح الله وكلمته الى مرريم البطل الطيبة المحسنة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده.

وانني ادعوك الى الله وحده لا شريك له و المولاة على طاعته وان تتبعني وتوقن بالذى جائنى فاني رسول الله وادعوك الى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت، فاقبلا نصيحتي . والسلام على من اتبع الهدى .

وجاء في رسالة النبي ﷺ الى المقوس حاكم مصر :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من محمد عبد الله ورسوله الى المقوس عظيم القبط:

سلام على من اتبع الهدى، اما بعد، فاني ادعوك بدعاية الاسلام، اسلم تسلم، يؤتيك الله اجرك مرتين، فان توليت فعليك اثم القبط (يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سوأة بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأننا مسلمون) آل عمران/٦٤.^(١)

خامساً: ارسال الوفود الى قادة الدول الأخرى :

بعث الرسول الكريم ﷺ الوفود الى البلدان التي لم تكن تهتم رسائلة سماوية، ومن امثلة ذلك بعثة عبد الله بن حداقة السلمي الى كسرى حيث حمل اليه الرسالة التالية:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس

سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهاد ان لا الله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله وادعوك بدعاء الل فاني رسول الله الى الناس كافة لانذر من كان حيلاً ويحق القول على الكافرين اسلم تسلم، فان ابيت فاثم الم Gors علىك .

لقد كانت رسائل النبي ﷺ التي ارسلها الى حكام القبائل العربية والدول الاجنبية، تبدأ بالبسملة ويتبعها عبارة(السلام على من اتبع الهدى)، ثم الدعوة الى الاسلام وعبادة الله وتوحيده، كما كانت في حال رفض الدعوة الانار لن يرفضها واعطاءه مهلة للرد عليها .

سادساً: عدد سفراء الرسول ﷺ تشير الدراسات و الوثائق التاريخية ان عدد سفراء الرسوم ﷺ بلغ خمسة عشر الف مبعوث او سفير . فقد اوفدتهم الى كل من النجاشي في الحبشة، وهرقل امبراطور الروم، وكسرى ملك الفرس، والمقوس ملك مصر، واى اسقف نجران، وزعماء يهود خيبر، وملوك اليمن وعمان والبحرين، واى الحارث بن شمر الغساني ملك الغساسنة في الشام، فضلاً عن عدد آخر من زعماء الدول، والقبائل المجاورة، اما اول سفير في الاسلام في يثرب

(١) عباس محمود العقاد: عمرو بن العاص، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٦٩، ص ٨٥ .

فقد كان مصعب بن عمير بن هاشم الذي بعثه النبي ﷺ ليعلم من يدخل الاسلام والعمل على نشره بين الذين كانوا لايزالون يشاركون .

وقد نجح مصعب في ذلك، اذ دخلت على يديه الاسلام معظم قبائل العرب ولم يبق دار من دور الانصار في يثرب البا دخله الاسلام فكان اختيار الرسول في ان تكون هجرته الى هذه المدينة كما انها اصبحت عاصمة الدولة الاسلامية وهي المدينة التي انتقلت فيها روحه الطاهرة الى الرفيق الاعلى^(١).

سابعاً: رسول النبي محمد ﷺ الى اليمن :

بعث الرسول محمد ﷺ رسالته الى ذي الكلاع وذى عمرو باليمن، كما بعث برسائل الى اذو اليمن واقبالها يدعوهם الى الاسلام وقد استجاب ذي الكلاع وذى عمرو وكانا يدينان باليهودية اما معاذ بن جبل فقد بعثه الرسول ﷺ السنة التاسعة للهجرة الى اهل اليمن قاضياً وسفيراً ومرشداً، يعلم الناس القران الكريم والشريعة الاسلامية وبقبض الصدقة اي الزكاة من عمال اليمن، كما بعث النبي محمد ﷺ خيرة اصحابه الى اليمن لنشر التعاليم الاسلامية وتولي امور القضاء، وعلى راس هؤلاء الصحابة : علي بن ابي طالب وابو موسى الاشعري وخالد بن الوليد وزجرير بن عبد الله الجلي وعمرو بن حزم الانصاري وقيس بن المكشوش والطاهر بن ابي هالة، ويبلغ عدد عمال النبي على اليمن واحد وعشرون عاملاً وكان كل واحد منهم يقوم بادوار ادارية وقضائية، وتروي الاحاديث المشهورة عن مهامهم .

فقد روي عن الامام علي - كرم الله وجهه - قال: بعثني رسول الله ﷺ الى اليمن قاضياً ، فقلت، يارسول الله اتبعيني وانا شاب وهم كهول، ولا علم لي بالقضاء ؟ قال : انطلق فان الله سيهدى قلبك، وثبتت لسانك، قال علي: فوالله ما تعابيت في شيء بعده . وفي رواية ان النبي ﷺ قال اللهم اهد قلبي، قال : فما شكت في قضاء اثنين بعدها . و في رواية اخرى ان النبي قال لعاذ بن جبل قبل ان يرحل الى اليمن : بما تقضى؟ قال: بكتاب الله . قال : فان لم تجد؟ قال فبسنة رسول الله ﷺ . قال: فان لم تجد؟ قال : اجهد رأيي . فقال الرسول ﷺ الحمد لله الذي هدى رسول الله الى ما يحبه رسول الله ﷺ .^(٢)

ومن جملة ما كتبه كتاب اخبرهم فيه بشرائع الاسلام وفرائض الصدقة والجزية، والماشى و الاموال، واصحابهم برسله واصحابه .

وكتب الرسول ﷺ كتاباً طويلاً الى الحارث بن عبد كلال، والى نعيم بن عبد كلال، ومعامر وهمان، ونعمان قيل ذي يزن ووزنه ذي رعين، اما رسول اهل اليمن للنبي محمد ﷺ فقد كان مالك بن مرارة الراهاوي، وهو من قبيلة همان وكانت رسائل النبي ﷺ تنتهي بخت منقوش نصه محمد ﷺ .

ثامناً: نتائج رسائل النبي ﷺ :

اتاح صلح الحديبية الفرصة للمسلمين في تبليغ ونشر الدعوة الاسلامية بواسطة الرسائل، التي كان من نتائجها دخول عدد من ملوك هذه الدول الى الاسلام، كما اسلم مع الملوك الكثير من اتباعهم، عدا قادة اربع دول فلم يسلمو ، بل ان

^(١) عباس محمود العقاد: المصدر السابق، ص ٨٨.

^(٢) نقلًا من كتاب محمد راشد عبد المولى: تطور التشريع والقضاء في الجمهورية العربية اليمنية، دار التوفير للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٦.

كسرى ملك الفرس رفض الاسلام ومرق كتاب النبي فمرق الله ملكه فقتل على يد ابنه، ولحقه بذلك التصرف الحارث بن شمر الغساني الذي لم يكن امره بيده بل بيد سيده(هرقل) قيصر الروم .

وتشير المصادر ان المعاملة التي لقيها سفيرا النبي ﷺ لدى هرقل والمقوقس ،كانت معاملة حسنة وان السفيرين بذلك جهداً غير عادياً، غير انهما لم ينجحا في ايصال الرسالة واقناع (هرقل) وجريج بن متى الملقب (المقوقس) ملك مصر واسكندرية من الدخول في الاسلام، والذي ارسل مجموعة من الهدايا الى النبي محمد ﷺ ومنها جاريتان وبغلة^(١)، اتخذ النبي ﷺ احداهن "مارية القبطية" جارية تزوجها بعد ان اسلمت، فاعتقتها، وانجب منها ابنه ابراهيم عليه السلام،اما هرقل و المقوقس فلم يدخلوا الاسلام الا انهما اعادا رسولي النبي ﷺ محملين بالهدايا، وكانت معاملتهما للرسولين حسنة، وبينما ان الرسول ﷺ كان لا يقتل المبعوثين حتى وان صدرت منهم اخطاء، وكان قتل الرسل بنظره يمثل اعلان حرب وجريمة من اكبر الجرائم، وقد بعث ﷺ الحارث بن عمير الاذدي بكتاب الى عظيم بصرى البيزنطي، فاعترضه شرحبيل بن عمرو الغساني، عامل البلقاء في الشام من قبل قيصر الروم، واوشق رباط رسول النبي ﷺ وضرب عنقه، وعقاباً للروم على هذه الخيانة فقد شن المسلمون معركة مؤتة عام ٦٢٩ م التي مثلت مقدمة لفتح بلدان النصارى كما مثلت اكبر لقاء في معركة يخوضها المسلمون في حياة النبي ﷺ، والذي امر بان يكون على راس الجيش الاسلامي زيد بن حارثة، وقال للمجاهدين: ان قتل زيد فيخالفه جعفر بن ابي طالب بحمل الراية، وان قتل جعفر فيخالفه عبد الله بن رواحة الانصاري الخزرجي، واصاهم بان يأتوا بقاتل رسوله الحارث بن عمير، وكان عدد جيش المسلمين ثلاثة الالاف مقاتل، وقد قتل قادة المسلمين الثلاثة، وتسلم القيادة سيف من سيف الله، هو خالد بن الوليد الذي اظهر نبوغه ومهاراته بان خلص جيش المسلمين الاقل عددا امام جيش الروم وذلك بفضل التكتيك الذي اتبعه مما اقي الرعب والهلع الذين كانت قوتهم اكبر قوة حينها على وجه الارض . اذ كانت قوة الروم تبلغ مائتي الف مقاتل، وقوة المسلمين ثلاثة عشر الف مقاتل، اي ان عدد الروم ٣٠ ضعفاً لعدد المسلمين، فكانت معركة مؤتة بداية للاقاء الرومان في معارك اخرى .

وعلى اي حال فان الدبلوماسي سيلاحظ من خلال دراسته واطلاعه على رسائل النبي محمد ﷺ التي حملها مبعوثوه الى ملوك وامراء واباطرة واساقفة تلك الدول، ان تلك الرسائل حملت في طياتها مهمة الدعوة الى الاسلام التي كانت في مقدمة اهتمامات النبي ﷺ، اما المهملة الثانية لدبلوماسية المرحلة الاولى، في عهد الرسول والخلفاء الراشدين الاربعة من بعده، فقد تمثلت في تحقيق اهداف الوصول لعقد هدنة بين المتحاربين، وعقد اتفاقيات سلام وفاء للأسري وتحقيق المصالح المشتركة من خلال اقامة علاقات، كما تم ارسال مفهوم الحصانة الدبلوماسية، كما سبق تناولها مع مبعوثي الدول الاجنبية^(٢) وقد تطورت هذه الاجراءات في عهد الخلفاء بحكم ازدياد رقعة الدولة الاسلامية والفتحات التي تمت في عهد الخلفاء .

ومن ضمن تلك التطورات، انشاء ديوان مختص، يعمل بما اقره الرسول ﷺ من معاملة حسنة للسفراء الاجانب، واعطائهم الامان ، وتأمين اقامتهم ومغارتهم، فضلاً عن اكرامهم بالهدايا .

ولا يفوتنا التوضيح ان الدولة الاسلامية التي ظهرت في القرن السابع الميلادي، وانتشار الدعوة التي امتنعت الى اقطرار عدة، من المحيط الاطلسي الى المحيطين الهندي والهادئي ، فقد اخذت تتسع وتضع حدأ امام الحضاراتين القويتين في تلك الفترة، الفارسية والرومانية، اللتان وفقتا عاجزتين امام المد الاسلامي، ولعله من المفيد التذكير ان من الاعمال

(١) عباس محمود العقاد: مصدر سبق ذكره ص ٨٥.

(٢) د.حسن سيد سليمان: مصدر سابق، ص ٢٤٢.

العظيمة التي يسرها الاسلام كان توحيد المسلمين، بعد ان كان النظام الدولي القديم - منذ القرن السابع الميلادي وحتى القرن الخامس عشر - مكوناً من اربع امبراطوريات او اربع دول قوية هي الفرنجة في الشمال - وقبل ظهور الاسلام كان من وائل بلاد الفرنجة في البحر جزيرة روس وجزيرة صقلية وغيرها - والامويون في الغرب، والبيزنطيون في الشمال الشرقي، والعباسيون في الشرق والجنوب، وكانت هذه الدول تستخدم سياسة المحاور فيما بينها، سعياً بعد ظهور الدولة الاسلامية وتساقط عدد من الدول التابعة للامبراطورية الرومانية الغربية امام ضربات الجيوش الاسلامية التي لم تميز بين انسان وآخر، فالكل سواسية كاسنان المشط، اذ ان الدبلوماسية الاسلامية في مرحلتها الاولى عملت على توحيد كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم، وتقويمهم امام الاعداء حتى تحقق الامة اغراضها، الامر الذي مكناها من توسيع رقعتها ونشر الاسلام في عدد من الاقطار، ولعل الدور البارز للدبلوماسية الاسلامية - حينذاك - استخدامها لعنصر التوازن الدولي مع القوى العظمى مما ساعد على توثيق الروابط بينها وبين الدول الاخرى.

وهكذا فان الدبلوماسية الاسلامية في عهد النبي محمد ﷺ قد هدفت اولاً واخيراً الى نشر الاسلام وتعليم الناس قواعد الشريعة الاسلامية، ومصدرها القراتن الكريم الهدف الى تحرير الانسان من العبودية، واجراجه من الجهل الى الضياء المشرق بالعدالة، وعدم التمييز بين انسان وآخر . فتمكن النبي محمد ﷺ من مجادلة الكفار اينما وجدوا، وتمكن من اقناع بعضهم ودخولهم الاسلام، ومن لم يسلم فعليه دفع الجزية . (وهو مبلغ من المال يقوم اهل الذمة بدفعه للمسلمين مقابل حماية المسلمين لهم) . قال رسول الله ﷺ : " أمرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله بفان قالوها عصموا مني دمائهم واموالهم " ^(١)

المبحث الثاني

عصر الخلفاء الراشدين (١١ - ٤٠ هـ)

سواء في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، أو بعد وفاته، في أثناء الخلافة الراشدة (١١-٤٠ هـ) كانت الدبلوماسية التي اتبعها الخلفاء الراشدون الأربع، ليست إلا امتداداً للدبلوماسية التي اخطتها الرسول، القائمة على نشر الاسلام، وإقامة علاقات مع الدول الأخرى. وذلك عن طريق الحوار والتفاوضات، عملاً بقوله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ^٢ إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ^(٣).

وبدون شك فالتطور ملازم للمجتمعات والدول في مختلف مجالات الحياة. وينطبق ذلك على مراحل الدبلوماسية العربية والإسلامية، فهي الأخرى لم تكن دائمة أو متغيرة حتى وقت قريب. وكذا الحال بالنسبة للدبلوماسية الأوروبية، فالبعضات القيمة والدائمة لم تبدأ إلا في القرن الخامس عشر، وستتناول ذلك في الفصول القادمة. لأن الدبلوماسية المتولية التي كانت تتبع في أوروبا أو غيرها كانت بدائية وتقليدية، لكنها حاسمة وأصلية وهادفة، لاعتمادها على أغراض معينة، مثل ابرام اتفاقية الهدنة بين الدول المختلفة المتنازعة، أو التجاربة، أو إجراء المفاوضات الثنائية المباشرة منها أو غير المباشرة، كما حدث بين الرسول محمد ﷺ، وقرיש. وكما هو معروف، فإن مركز قيادة الدولة الاسلامية (العاصمة) كانت المدينة المنورة. وعادة ما كان الرسول ﷺ، والخلفاء الراشدون - عند نشوء مسألة خلافية مع قبيلة أو دولة مجاورة - أن يوقد (مبعوثاً)، وهناك أمثلة كثيرة سبق استعراضها.

^(١) عباس محمود العقاد: المصدر السابق، ص ٨٦.

^(٢) القرآن الكريم: سورة الحجرات، الآية (١٣)

ويجدر بنا القول أن الدولة الراغدة الإسلامية قد اعتمدت على قيام الجهاز الدبلوماسي، الذي يحرر ويعد الرسائل للملوك والرؤساء. كما أن الجهاز كان يقدم استشاراته فيمن توفر فيهم الأمانة والوطنية والكفاءة والثقة فيه لنقل الرسالة، التي كان من نتائجها:

أولاً: أن الرسالة بعد ذاتها تفويض لحاميها بأن يتحدث باسم رئيسه أو مليكه.

ثانياً: أن المبعوث مفوض في التوقيع على وثيقة محددة.

ثالثاً: نظراً إلى أن المبعوث يمثل رئيس الدولة، فلا بد أن يكون ممن توفر لديهم براعة الأسلوب والاقناع والحنكة الدبلوماسية. ومن مآثر الحضارة الدبلوماسية العربية والإسلامية التي لا يجب إغفالها احترام الرسل وحمايتهم وتوفير الأمان لهم. وقد كان العرب سباقين غيرهم من الدول، في ثبيت قواعد الحصانات الدبلوماسية، من ضمنها احترام الأديان، وحرية العبادات للسفراء والمبعوثين، وهي (سلوك وقواعد) وضعها الرسول محمد، فتبعة الخلفاء الراشدون الأربع.

أولاً: الخليفة أبو بكر الصديق (رضي الله عنه):

وهو الخليفة الأول في تاريخ الإسلام (11-13هـ). وفور تسلمه مهام الخلافة، وجه خطابه المشهور والذي قال فيه: (أيها الناس، إنني قد وليت عليكم، ولست بخيراً لكم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أساءت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ^(١)).

إن من أهم الأعمال التي قام بها فور خلافته القصيرة للرسول -عليه الصلاة والسلام- محاربة أهل الردة التي عمّت شبه الجزيرة العربية. فمنهم من عاد إلى عبادة الأصنام، ومنهم من امتنع عن دفع الزكاة، ومنهم من امتنع عن الصلاة، فجهز لهذه الحركة أحد عشر لواء عسكرياً لمحاربة المرتدين عن الإسلام. وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، قبل وفاته قد وجه أسماء بن زيد في سبعمائة مقاتل إلى بلاد الشام، فما كان من أبي بكر -رضي الله عنه- فور تولييه أمور المسلمين إلا العمل بتعليمات رسول الله: قال: **والذي لا اله إلا هو، لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ما ردت جيشاً وجهاً رسول الله، ولا حللت لواء عقده، فوجه أسماء لمحاربة الروم في جنوب بلاد الشام، وتمكن من هزيمتهم، ورجع بجيشه مظفراً.**

كما أرسل الخليفة إلى اليمن جيشين لمحاربة المرتدين. أحدهما قدم من البحرين بقيادة عكرمة بن أبي جهل، والثاني بقيادة المهاجر ابن أبي أمية الذي تمكن من القضاء على بقايا الأسود العنسي (وكان قد قتل قبل وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام) ومحاربة المرتدين الذين صدقوا دعوة طليحة الأسيدي.

إن من الحكمة التي اتبعها أبو بكر إرساله مع قادة جيوشيه رسائل إلى زعماء المرتدين، طلب منهم العودة إلى روح الإسلام، محذراً إياهم من الردة، كما تنبه إلى أهمية عقد اتفاقية هدنة مع الدول المجاورة للدولة الإسلامية. فأوفد رسائل إلى المقوص في مصر، وأخرى إلى كسرى ملك الفرس، وكذلك إلى قيصر الروم. وبسبب تراجع هذه الدول عن الإتفاقيات الموقعة معهم، أعد الخليفة جيوش الإسلام لمحاربتهم، وفتح هذه الدول، ونشر الإسلام فيها. وذلك ما حدث بالفعل، الأمر

^(١) الزلمي: مصدر سابق، ص ١٣٨.

الذى استلزم إعادة جيش المسلمين وتسويقه إلى كل من العراق، والشام، ومصر، وإيران. وكما هو معروف بأن جيش الروم انهار في معركة اليرموك المشهورة بالشام.

ثانياً: الخليفة عمر بن الخطاب :

في السنة التي توفي فيها الخليفة الأول تولى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنهما- أمر الخلافة (٦٤٤-٦٤) (٥٢٣-١٣) الذي بعث بجيش المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص، لمحاربة الفرس في معركة القادسية عام ١٥، وتتوالت انتصارات جيش المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص، حتى تم فتح القدس عام ١٥، وتم إبرام معاهدة صلح (تسوية) بين الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- وأعيان بيت المقدس. ولأهمية ما اتفق عليه نورد هنا نص الوثيقة العmerica^(١):

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا ما اعطى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل إيلاء من الأمان، اعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائهم وصلبائهم، وسقيمها وبرئتها وسائر ملتها، انه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينقص منها، ولا من حيزها، ولا من صليبيهم، ولا من شيء من اموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار احد منهم، ولا يسكن بآيلاء احد من اليهود، وعلى اهل إيلاء ان يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم ان يخرجوا منها الروم والصوصون، فمن خرج منها فإنه آمن، ومن اقام منهم فهو آمن، وعليه ما على اهل إيلاء من الجزية.

ومن احب من اهل إيلاء ان يسير بنفسه وماله مع الروم ويختلي بيهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعد، وعليه ما على اهل إيلاء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصل حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك: خالد بن الوليد، عمرو بن العاص، عبد الرحمن بن عوف، معاوية بن أبي سفيان^(٢).

ولقد كان انتصار العرب بالإسلام، فهو الذي مكنهم من تحقيق الانتصارات، والتوسيع في الفتوحات، والحادق الهرزائم بأعدائهم، لأن الدين الإسلامي وحماته اعتمدوا القوة والمنعة على الضعف والتواكل.

وما كان امامهم إلا الاستمرارية في الفتوحات ونشر الإسلام، حيث تم فتح مصر على يد عمرو بن العاص والتي مصر عام ٥٢٢. كما تم فتح برقة في ليبيا غرباً، والنوبة جنوباً، والتي دخلها عمرو بن العاص عام ٥٢٢، وصالح أهلها على دفع الجزية. وتولى عقبة بن نافع فتح زويلة عام ٥٢٢هـ.^(٣)

اما بالنسبة لفتح تونس فإن الخليفة عمر بن الخطاب لم يستجب لطلب القائد عمرو بن العاص لغزوها، لكنها فتحت في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان- رضي الله عنه- عام ٥٢٤، اذ ارسل جيشاً بقيادة عبد الله بن سعد الذي هزم

(١) مجبر الدين الحنبلي، مصدر سابق، ص ٢٥٣-٢٥٤.

(٢) عباس محمود العقاد: مصدر سابق، ص ٨٨.

(٣) شوقي أبو خليل: مصدر سابق، ص ٢٩١.

البيزنطيين فوق أراضي إفريقيا والأندلس، على يد عبد الله بن سعد ابن أبي سرح. وهكذا - خلال عشرين عاماً - تمكّن العرب من التوسيع، وفتح أراضٍ واسعة جداً على حساب الامبراطوريتين الفارسية والرومانية.

ثالثاً: الخليفة عثمان بن عفان (رض):

كان سفير الرسول - عليه الصلاة والسلام - لدى قريش، لكتابته الاجتماعية بينهم. وسبق الحديث عما تم بشأنه، عندما اشيع قتل قريش لعثمان بن عفان، وتمت بيعة الرضوان.

واثناء خلافته أولى الرسل جل اهتمامه، وخصص لهم مبالغ على حساب بيت المال، بهدف حسن وفادتهم ونزعهم ^(١) وضيافتهم.

رابعاً: الخليفة: علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه):

لقد اهتم كأسلافه بالرسل الموفدين إليه، أو المختارين من طرفه، إلى المجتمعات الأخرى. وفي هذا المجال قال الإمام علي: رسولك ترجمان عقلك، وكتابك أبلغ ما ينطق عنك.

وهكذا يمكن القول؛ إن دبلوماسية الخلفاء كانت تهدف - قدر المستطاع - إلى دفع الحرب بعيداً، والاستعانة بأسلوب الحوار والطرق الدبلوماسية، عن طريق المفاوضات الهدافة إلى إبرام الاتفاقيات، وعقد التحالف والصلح في معظم الأوقات، وقد التحالفات حتى لا يجوز الخروج بما اتفق عليه، ويقول الله تعالى (آمنوا الذين آتاهما يا بالغفود أوفوا) ^(٢) وقال رسول الله (صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): وفاء بغير خير من غدر بغيره. وهكذا؛ فإن الدبلوماسية التي اتبّعها الخلفاء مرتبطة بأبعادها كلها وظواهرها بالشريعة الإسلامية، المبنية على الكتاب والسنة، وليس مرتبطة بالمصالح الآنية المتغيرة والقائمة يومنا هذا والتي نشاهدها بين دولة وأخرى ومن وقت إلى آخر.

من المعروف أن السياسة التي يتبعها القادة والحكام هي كيفية تدبير شؤون وصلاح الأمة والبلاد، على المستويين الداخلي والخارجي. ولن نتعرض هنا لمفهوم ومصطلح السياسة، فهذا ليس مجال الحديث عنهم، لكن الخلفاء اهتموا كثيراً بموفديهم وبالموفد إليهم. وفيما يتعلق برسل الخلفاء، فقد كان للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وهو سفير بني عدي في الجاهلية، رأياً اكتسبه من تجاربه السابقة، أو من خلال صحبته للرسول - عليه الصلاة والسلام - عندما اوضح أن أعين الملوك تسبق إلى ذوي الرداء من الرسل قائلاً: فإذا دخلتم قدمتم احسنكم وجهاً وإذا نطقتم ميزتكم السننكم، فاجهتوها أن يكون ذلك الواحد وسيماً جسيماً، يملا العين المتشوقة للتعرف على منطق مبعوثي تلك الشعوب فلا تستصرفه.

وفي عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، تم إنشاء أول ديوان، أو ما يمكن تسميته بالجهاز الدبلوماسي المكلف بتحرير الرسائل للملوك والأمراء، وكذلك قراءة الرسائل الموجهة للخليفة والرد عليها. وقد كان الخليفة الثاني أحد كتاب الرسول عليه الصلاة والسلام، فضلاً عن الخلفاء الثلاثة الآخرين، ومعاوية بن أبي سفيان وزيد بن ثابت.

(١) عباس محمود العقاد: مصدر سابق، ص ٩٠
(٢) سورة المائدة، الآية الكريمة رقم (١).

ان من مآثر الدبلوماسية الاسلامية في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- مشاركة المرأة العربية المسلمة في العمل الدبلوماسي. حدث ذلك عند ايفاد زوجته أم كلثوم بنت الامام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه- في مهمة إلى بلاد الروم، فاستقبلتها زوجة ملك الروم، وعند عودتها محملة بالهدايا، سلمتها لل الخليفة، الذي امر بتسليمها إلى بيت مال المسلمين، ولم تأخذ السيدة أم كلثوم منها إلا ما اعطاه لها الخليفة.

المرحلة الثانية

الخلافة الاموية (٤١-٥١٣٢ هـ)

تواصلت عملية الفتوحات الاسلامية لنشر الاسلام، فاتسعت مساحة الدولة الاسلامية اثناء الخلفتين الاموية والعباسية، شمالاً وشرقاً وغرباً وفق روح الثوابت التي ثبّتها الرسالة السماوية، وجسدها الرسول الكريم، وعمق مفهومها، وطبقها واخذ بها الخلفاء الراشدون الأربع - رضي الله عنهم- وفي خضم تلك الانتصارات، وتحقيق اعظم اهداف الدولة الجديدة، لأنها لم تتowan عن استخدام مختلف الوسائل المتاحة لحماية نفسها دفاعاً عن حدودها، ومحافظة على ما حققته من فتوحات. وكانت الدبلوماسية رديفاً للمنجزات العسكرية، الأمر الذي تطلب قيام علاقات صداقة مع الدول المجاورة وتطويرها تجاريأ بما يضمن لها البقاء والاستمرارية، في ظل سياسة العدل وانصاف المظلومين، والتواضع مع عامة الناس، على نهج الرسول محمد (صلّى الله عليه وسلم).^(١)

اولاً: دبلوماسية الدولة الاموية:

بداية لعله من المفيد الاشارة إلى أن تسمية الدولة بالدولة الاموية، يرجع إلى جد معاوية الراكي، أمية بن عبد شمس. وتاريخ قيامها هو عام ٤١هـ، على يد مؤسسها معاوية بن أبي سفيان، الذي نقل مركز الخلافة إلى دمشق، بعد ان كانت أيام الرسول والخلفاء الثلاثة في المدينة، وفي الكوفة (العراق) اثناء خلافة الإمام علي (الخليفة الرابع) الذي قُتل في رمضان عام ٤٠هـ، على يد عبد الرحمن بن ملجم، أحد الخوارج. وبمقتل الإمام علي - وهو يؤدي صلاة الفجر- انتهى عهد الخلفاء الراشدين لتبدأ مرحلة جديدة من الشقاء والنزاع والصراع بين قادة دول الأمة العربية والإسلامية.

وكما هو معروف فإن عام ٤١، سمي بعام الجماعة على اثر تنزيل الحسن بن علي بن أبي طالب عن الخلافة لمعاوية، صوناً لدماء المسلمين، ولكن يصبح الأمر شورى بين المسلمين. وقد عاش الحسن بقية حياته في مدينة طيبة مدينة رسول الله (صلّى الله عليه وسلم)، حتى توفي بها عام ٥٠هـ، وللأسف الشديد ذلك لم يحدث. فقد تحولت الخلافة من نظام شوري بين المسلمين. كما كان متبعاً أيام الخلفاء إلى نظام وراثي. تذكر المصادر أن معاوية أمن وخلف لأقاربه واصحابه مناطق نفوذ وأملاك لا حدود لها، واستخلف ابنه يزيد من بعده، واستمرت الوراثة طيلة حكم الأسرة الاموية زهاء ٩١ عاما.^(٢)

ومن البديهي ان تضل الدولة الجديدة حريصة على استخدام الدبلوماسية في اطارها الإسلامي، وهو العمل على نشر الإسلام في الأقطار التي تم فتحها، والتي دخل اهلها في دين الإسلام، أو دفعوا الجزية. فضلاً عن تنفيذ سياسة الدولة الخارجية التي توسيط في المجالات المختلفة، وبالتالي؛ فقد أصبحت الدبلوماسية اداة الفزوف عن الحرب، والدفاع عن حدود الدولة الجديدة، وإقامة علاقات اساسها تبادل المنافع والمصالح المشتركة، وعقد المحالفات بما يلبي رغبات الأطراف المتحالفة.

(١) شوقي ابو خليل: مصدر سابق، ص ٣٠٠.

(٢) شوقي ابو خليل: الحضارة العربية الاسلامية، مصدر سابق، ص ٢٢٥.

وقد تميزت سياسة الدولة الأموية بالمرونة واللين والشدة عند الحاجة. وفي هذا المجال فإن الخليفة الأموي الأول (معاوية بن أبي سفيان) قال " لو ان بيني وبين الناس شرة ما انقطعت ابداً، اذا مدواها ارخيها، واذا ارخوها شدتها ".^(١)

يتضح ذلك من خلال استقبال الخليفة معاوية لرسول البيزنطيين (يوحنا) الذي وصل إلى دمشق بعد حصار القسطنطينية الذي استمر سبع سنوات، وحيث كان المبعوث ذو خيرة تتناسب مع مستوى المسؤولية الرامية لتهيئة النزاع، ووضع حد للخلافات بين الدولة الأموية والبيزنطيين، فقد اجرى مفاوضات اسفرت عن عقد صلح مدته ثلاثون عاماً.

ان حكمة الخليفة معاوية بن أبي سفيان تدل على المرونة التي تعامل بها اول حاكم أموي، والتي تعكس التواضع، وتجسد الرغبة في حل الخلافات مع الآخرين عن طريق الحوار.

ثانياً: الرسائل الدبلوماسية:

تم الاهتمام بتأسيس ديوان الرسائل، التي تصل من قادة وملوك الدول، وجاء ذلك الاهتمام جراء كثرة المراسلات مع الاقطاع الأخرى، وتميزت الدبلوماسية الأموية كذلك بأفكار وأساليب هي من ضمن القواعد التي يتم تطبيقها في وقتنا الحاضر، سواء من حيث تحرير الرسائل، و اختيار من يتولى كتابتها وحفظها، و اختيار حملة الرسائل إلى الدول الأخرى، بما في ذلك تقديم النصائح والمعلومات المطلوبة للموفدين إلى عاصمة الدولة. بالإضافة إلى ذلك تسهيل إقامة الموفدين وتوفير الحصانة الشخصية لهم، ومنحهم الامتيازات التي تساعدهم على تسهيل مهماتهم. ومع ذلك، فإن الدولة الأموية لم تترك الأبواب مفتوحة للأجانب دون رصد لتحركاتهم، فقد كانت تعمل على مراقبتهم حتى لا يسيئوا استخدام الامتيازات والحسانات المنوحة لهم لتحقيق أغراضهم.

إن الفتوحات العربية والإسلامية التي امتدت شرقاً وغرباً وشمالاً، مثلت بدون شك قمة ازدهار الدولة، التي كانت قد تمكنت من فتح المغرب العربي في إفريقيا، على يد عقبة بن نافع وكذلك فتح إسبانيا، بعد أن تمكّن جيش المسلمين على يد طارق بن زياد وموسى بن نصیر من الاستيلاء على قرطبة، وعلى العاصمة طليطلة. واستمرت الفتوحات حتى وصل العرب إلى فرنسا على يد عبد الرحمن الغافقي عام 511هـ- 1112م، التي انسحبوا منها عام 514هـ- 1122م، بعد هزيمتهم في معركة تور(بلاط الشهداء) التي دارت رحاها بين الجيشين؛ الإسلامي بقيادة عبد الرحمن الغافقي، والفرنجي بقيادة شارل مارتل، هذه المعركة التي وضعت حدأً للفتوحات الإسلامية في أوروبا في ذلك الزمان، ولم تستأنف الفتوحات في أوروبا إلا على أيدي الاتراك العثمانيين في القرن الخامس عشر.

وفي الشرق تم فتح بلاد السند (الباكستان) على يد محمد بن القاسم. كما تم غزو أرمينيا وأسيا الصغرى، حيث تمت مطاردة دول الروم في هذه المناطق، فحاولت الدولة فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، والتي استمرت في حرب معها لمدة سبع سنوات، وبسقوطها في يد المسلمين عام 1453م، على يد السلطان العثماني محمد الفاتح، تم القضاء على تلك الدولة لتصبح أراضيها ضمن الدولة الإسلامية. ومن مآثر وايجابيات الدولة الأموية، استخدامها اللغة العربية كلغة رسمية في أنحاء دولة الخلافة، وعلاوة على الصبغة الإسلامية التي انتشر الإسلام في اقطارها، وتم اعتماد اللغة العربية في هذه الدولتين، أما عروبة الدول التي فتحت واستعيرت سواء في الشام أو في مصر أو شمال إفريقيا، فذلك بسبب

(١) عباس محمود العقاد: مصدر سابق، ص ٩٣.

نزوح القبائل العربية إليها، واستقرارها على أراضي الشعوب التي تم فتحها، ودخلت في الإسلام، وأصبحت اللغة العربية من مقوماتها. أما الدول الأخرى التي دخلت الإسلام ولم تستعرب، مثل فارس والباكستان وتركيا وافغانستان وандونيسيا، وعدد من الدول، فقد بقيت على حالتها، علماً بأن التعريب في دواوين الدولة بدا مع حكم عبد الملك بن مروان الذي توفي في دمشق عام ٥٨٦-٧٤٠.

اما بالنسبة للغات الأجنبية فقد تم استخدامها في دواوين الدولة الاموية، كما تم انشاء ديوان العطاء، وديوان الجندي، وديوان الخاتم وديوان الاحباس (الاوقاف).

وسيظل العالم العربي بعروبه واسلامه، والعالم الاسلامي بسلامه، الى ان يرث الله الارض ومن عليها، دون تبديل او تغيير، فالخروج عن مقومات واركان الاسلام هو خروج عن طاعة الله.

ثالثاً: عهد الدولة الاموية الثانية في الاندلس:

بعد سقوط الدولة الاموية الاولى في الشرق عام ٥١٣-٧٤٩، تمكن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، من الهروب من المذبح التي اعدها العباس، والتي قتل فيها اكثراً من ٨٠ شخصاً من قادة الامويين، وتتمكن من عبور عدد من الامصار، حتى وصل عاصمة الاندلس قرطبة عام ٥١٧-٧٥٠، وهناك التف المسلمين حوله، وعد ذلك ميلاد الدولة الاموية الثانية في الاندلس. وقد اعتمد على اعوانه، من بني أمية والبربر واهل البلاد. كما واجه ثورات عديدة داخلية وخارجية، لكنه تمكن من التغلب عليها. ودارت معارك بينه وبين شارلمان امبراطور الافرنج، الا انهمَا تفاهمَا في وقت لاحق، وتم الاتفاق بينهما على عدم اعتداء احدهما على الآخر^(١).

وقد قام الامويون المستقلون عن الدولة العباسية، الذين فروا إلى الاندلس، بنشر الاسلام في تلك البلاد الجديدة (اسبانيا والبرتغال). وكانت جيوش المسلمين في بداية قيام الدولة الاموية الاولى بقيادة عقبة بن نافع - قد تمكن من طرد الرومان من شمال افريقيا، ووصلت قوات موسى ابن نصیر وطارق بن زياد إلى المحيط الاطلسي، وإلى الشمال وراء أوربا عبر مضيق جبل طارق، حيث تم نشر الاسلام في اسبانيا عام ٥٩٢-٧١١.

وكما اوضحنا، فإن امارة الاندلس كانت أول امارة تنفصل عن الخليفة العباسية الكجرى في الشرق العربي. وكانت الحركات الانفصالية شائعة، الامر الذي ادى إلى مزيد من الفتنة، فواجهت الدول العباسية تمرد وعصيان عبد الرحمن بن حبيب في المغرب الأقصى، الذي انقطع عن الخليفة. واستقبل الامراء الامويين الفارين استقبلاً حسناً، حينها عجزت الدولة العباسية في بغداد عن تأكيد سلطانها ونفوذها على الاندلس، وكان ذلك الانفصال البداية في شق عرى الوحدة العربية والاسلامية.

وعلى الرغم من الفترة الطويلة وحكم المسلمين للأندلس، وشيوع الإزدهار الحضاري والاسلامي الذي ساد وذاع صيته، والذي لازالت معالله واضحة وشاهده إلى يومنا هذا، فقد واكب ذلك معارك وثورات، هددت الوجود العربي الإسلامي، وبرغم الانتصارات، التي ادت إلى الثبات والصمود، إلا أن الفتنة الداخلية قد سادت والمؤامرات الخارجية توالت، وكان أشدّها يتمثل في عوامل الفرقنة والتبعية التي ظهرت بين الطوائف العربية والبربر، مما أدى إلى مزيد من الضعف، ومكّن الإسبان من الانتصار على المسلمين، فسقطت طليطلة، وبعدها سقط عرش غرناطة في أيدي الإسبان. ذلك كلّه كان

(١) شوقي ابو خليل: مصدر سابق، ص ٢٦٠.

بسبب تناحر ملوك وذمماء الطوائف، والاستعانة بالأجانب على بعضهم البعض، وكانت النتيجة تأسيس الدولة الإسبانية يتوجها الحكم المسيحي بقيادة الملك فرناندو الثالث ملك أراجون، الذي تزوج فيما بعد بالملكة إيزابيلا ملكة قشتالة. وقد اتحدت الدولتان في دولة واحدة بعد حروب طويلة بينهما، وعمل الملكان على اخراج المسلمين مقهورين من إسبانيا، إلى الدول العربية المجاورة، وأغلاق صحفة مجيدة من تاريخ الإسلام والمسلمين في عام ١٤٩٢هـ، المازمنة لسنة ١٤٩٢ ميلادية، بعد حكم إسلامي دام ثمانية قرون.

رابعاً: العلاقات الخارجية:

وفيما يتعلق بعلاقات الدولة الاموية الثانية في الاندلس بالدول الأخرى، فقد اعتاد الامراء والخلفاء فيها على اقامة مراسم استقبال لمن يزور عاصمة الدولة. وقد بلغت السفارات والمراسلات والمعاهدات بين عاصمة الدولة قرطبة، وبين الدولة النصرانية قمتها في عهد الناصر. كما جاء وفدي ملك الروم حاملاً رسالة الى الخليفة عبد الرحمن الناصر. كما أقيمت علاقات وروابط بين بلاط القسطنطينية وقرطبة، وعادة ما كانت رسائل الباباط تحمل الهدايا للخليفة.

وذكرت المصادر ان اهم سفارة للخليفة الناصر هي سفارة امبراطورية المانيا زعيم النصرانية عام (٩٥٥هـ-٣٤٤).^(١)

وقد وصف المؤرخ الفرنسي "ليفي بروفنسال" عبد الرحمن ناصر بأنه من اعظم ملوك أوروبا كلها في العصور الوسطى".

أما العلاقات الدبلوماسية القائمة بين العالم العربي وإسبانيا، فإنها علاقات احترام وتبادل منافع ومصالح مشتركة. تبين ذلك من خلال الروابط التي نشطت بين المغرب وإسبانيا قبل ٢٥٠ عاماً. وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر ١٧٨٩-١٧٥٧، تمكن سلطان المغرب مولاي محمد بن عبد الله من توطيد الأمان والاستقرار لبلاده الغرب الأقصى، وأقام علاقات ود وصداقة ومعاهدات تجارية مع عدد من الدول الأوروبية كانت إسبانيا في الصدارة. إذ أولى المسلمين الأسرى في إسبانيا إهتمامه الخاص، ولذلك الغرض أوفد سفيره أبا العباس أحمد بن المهدى الفرزال، إلى كارلوس الثالث ملك إسبانيا في شهر ذي الحجة ١١٧٩هـ - مايو ١٧٦٦م، الذي أمضى هناك ثمانية شهور متقدلاً ومتعرضاً على عدد من المدن الإسبانية والآثار الإسلامية، ومساجدها الأندلسية التي لا زالت قائمة حتى يومنا وأشهرها المسجد الجامع الذي وصفه بأنه أعظم مساجد الدنيا في الطول والعرض، وقد تمكن من الإفراج عن الأسرى، وحسن معاملة حاملي الرسائل، والحصول على مجموعة كبيرة ونادرة من الكتب الإسلامية.

وفي عام ١٧٦٨هـ-١١٨٢، أوفد السلطان احمد بن المهدى الفرزال إلى الإشراف على تبادل الأسرى الإسباني والجزائريين، وكان عددهم ١٦٠٠ أسير من كل جانب.^(٢)

اما السفارة الغربية الثانية الى إسبانيا، فقد تمت في عهد محمد بن عبد الله الذي أوفد كاتبه محمد بن عثمان الى الملك كارلوس الثالث عام ١٧٨٠هـ-١١٩٣، بفرض تفقد احوال الأسرى المسلمين، وارسل للملك الإسباني عشره الآف مثقال (دينار) لتوزيعها على الأسرى المسلمين والمحتجزين، وارسل مع سفيره ستة من الأسرى النصارى. كما بعث السلطان عمر بن عبد الله بسفارة مغربية ثالثة الى ملك إسبانيا كارلوس الثالث، مع سفيره محمد بن عثمان في ٣١ يناير ١٧٨٠م، حياد فيها، وشاد

(١) للمزيد؛ راجع د. عز الدين فودة، النظم дипломасия، دار الفكر العربي، القاهرة، ط أولى، ١٩٦١م، ص ١١٦-١٣٠.

(٢) للمزيد؛ راجع د. سموحي فوق العادة، مصدر سابق، ص ٣٢-٣٤.

بصدقه البلدين، وخبره انه طرد الانجليز من مرسى طنجة وتطوان الى (جبل طارق)، وانه عمل على منع الانجليز من دخوله وجعله مقصوراً على مراكب (ملك الإسبان).

المبحث الرابع

الخلافة العباسية

قامت الخلافة العباسية على يد أبي العباس (السفاح)، عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله العباس.

وذلك في ربيع الاول ١٢٢ هـ - ٧٥٠ م، ومركزها مدينة الكوفة، حيث انتقلت عاصمة الدولة الاسلامية من سوريا الى العراق.

والخلافة العباسية اصلاً تنتسب الى العباس بن عبد المطلب، عم الرسول. ولأن فترة حكم العباسيين قياساً بالعثمانيين امتدت لحقبة طويلة من الزمن، فإن المؤرخين قسموا فترة الحكم الى عصرتين متناقضتين:

- العصر الاول، ١٢٢-٥٢٢هـ، وقد تميز حكم الدولة بالخلفاء الاقوياء.

- العصر الثاني، ٦٥٦-٢٣٢هـ، وعرف بعصر الخلفاء الضعفاء، الذين وقعوا تحت تأثير الاجانب من الاتراك والفرس، مما أدى الى نهاية الخلافة العباسية، وسقوط بغداد على يد التتار، وقتل اخر خلفاء الدولة العتصم عام ٦٥٦هـ.

وإذا كانت الدولة الأموية قد تولت عمليات الفتوحات الاسلامية في ظل اليمان القوي بالعقيدة الجديدة التي ميزت بين الحق والباطل، والظلم والنور، والعبودية والحرية، فإن تلك الفتوحات قد امتدت من حدود الصين شرقاً، حتى المحيط الأطلسي غرباً.

وقد ورثت الدولة العباسية العداء مع دولة الروم الواسعة، فكان عليها حماية الدولة، والدفاع عن الثغور، وقد تولت - حينذاك - محاولات الروم الانقضاض على اراضي الدولة العباسية، الان ان المقاومة كانت اقوى من تلك المحاولات، مما دعا الروم الى طلب الصلح مع المسلمين، ودفع الجزية لهم.

والخلافة العباسية - برغم تعدد قادتها والصراعات التي غذتها العناصر الخارجية في اوساطها- الا انها واصلت الفتوحات، فاتجهت شرقاً، وتوسعت عسكرياً نحو الهند، وتجارياً الى جنوب شرق آسيا والصين. ولم يكن النفوذ الاسلامي الذي امتد الى هذه الدول، عن طريق قادتها بالقوة وال الحرب فحسب، وإنما عن طريق التجارة والأخلاق العالية التي تمعنوا بها، ونشرهم للدين الجديد، مما ادى الى انتشار واستقرار الجاليات الاسلامية في هذه الدول.

وكانت الدبلوماسية في الدولة العباسية قد ازدهرت عندما تبوأ هارون الرشيد الخلافة عام ١٩٣-١٧٠هـ، فانه طمح كفирه من خلفاء الدول العباسية، الى الحد من نفوذ الدول الاموية الثانية التي قاعلاقيات تمت في الاندلس. وفي سبيل القضاء عليها، فضلاً عن رغبته في إقامة حالف مع شارلaman ملك فرنسا، فقد كان لكل منها اهدافه ومراميه، فال الخليفة هارون الرشيد هدف الى:

أولاً: تحجيم دور الامويين في الاندلس الذين نازعوا العباسيين على الخلافة الاسلامية.

ثانياً: ظل العداء قائماً بين الامبراطورية البيزنطية (الايطالية)، التي بلغت قمتها اواخر القرن العاشر و اوائل القرن

الحادي عشر، وامتدت إلى ميرز بوتميا^(١) والدولة العباسية الإسلامية جراء الخلافات الحدودية، والغزو القائم بينهما. فيما كان من الخليفة هارون الرشيد لا التعاون مع الملك شارلمان في فرنسا ضد بيزنطة.^(٢)

ثالثاً: سهل الخليفة هارون الرشيد طريق الحج لزيارة الأماكن المقدسة المسيحية في القدس، مما أعطى للملك الإفرنجية شارلمان القوة والعلمة، وزعزع هيبة بيزنطة في العالم المسيحي.

وقد تمحورت أهداف شارلمان والخليفة العبسي في الآتي:

أولاً: بما أن الدولة الاموية في الاندلس (اسبانيا الحالية)، كانت قريباً في حدودها مع الفرنجة، فإن شارلمان كان يخشى انتشار الإسلام في بلاده، عن طريق المسلمين في الاندلس. لذلك تحالف مع هارون الرشيد في سبيل وقف نفوذ الامويين في الاندلس.

ثانياً: وبما أن قيادة العالم المسيحي في تلك الفترة تمحورت بين الفرنجة والأمبراطورية الرومانية الغربية في روما، لذلك وقف هارون الرشيد مع شارلمان ضد بيزنطة وروما.^(٣)

ونظراً لصالح الدولتين العباسية والفرنجة فقد اتفقا على مواجهة الامويين والبيزنطيين والرومانيين الغربيين، في آن واحد، وذلك عام ١٨٤هـ، ونص الاتفاق بينهما على أن:

١- يقوم المسلمون بتسلیم مفاتیح الأماكن المقدسة في القدس الشريف إلى شارلمان، (ربما لإتاحة الفرصة لن يريد ممارسة الشعائر الدينية من المسيحيين).

٢- يقوم الفرنجة بإرسال بعثات تعليمية إلى الشرق لتلقي العلوم هناك.

٣- تسهيل مهمة الحجاج الأوروبيين عند زيارتهم للأماكن المقدسة في فلسطين.^(٤)

وقد كانت بيزنطة تفوق الدولة العباسية، أثناء حكم الخليفة هارون الرشيد وبرغم قوتها فإنها كانت تدفع الجزية في عهد الإمبراطورية (إيبريني)، وعند وفاتها تولى الحكم (نقفور) الذي نقض الهدنة التي كانت بين بيزنطة والدولة العباسية، فأرسل كتاباً إلى هارون الرشيد طلب منه أن يعيد ما أخذته من الإمبراطورية (إيبريني) متهمًا إياها بالضعف والخذلان، وليس أمام الخليفة سوى ارجاع الأموال التي قدمتها للخليفة العبسي. وعندما قرأ هارون الرشيد كتاب إمبراطور بيزنطة الجديد رد عليه بغضب، وكتب الرد الآتي:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"

من هارون أمير المؤمنين إلى (نقفور) كلب الروم، قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون ما تسمعه، والسلام".

(١) د. محمد مصطفى زيادة، موسوعة تاريخ العالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ج ٥، ١٩٦٦، ص ٤٩٧.

(٢) حسن الباشا، دراسات في تاريخ الدولة العباسية، دار النهضة العربية، ١٩٧٥، ص ١٧٠.

(٣) د. سموحي فوق العادة، مصدر سابق، ص ٣١، ٣٠.

(٤) نقلًا عن: نهاد حميد، المفاوضات في الإسلام، دار طنين، طبعة أولى، ١٩٨٨، ص ١٢٦.

وسار الخليفة هارون الرشيد بجيشه تحت لواء لا اله الا الله محمد رسول الله، ووصل الى آسيا الصغرى (تركيا الحالية)، وانتصر في المعركة على الامبراطور، وكسر كرياءه، وأسر كرياءه، وأرغمه على عقد صلح، ودفع الجزية من جديد^(١). هذا الوقف يمثل عظمة دبلوماسية القوة التي استخدمها هارون الرشيد، كما يوضح لنا المعنى الحقيقي للسياسة في الاسلام، وللقيادة الذين ليس لهم من هم الا العمل الذي به وحده يمكن استعادة الحقوق المغتصبة، دون الاستعانة بالآخرين، او رفع الشكاوى اليهم، ولم تقتصر العلاقات بين العباسيين والفرنجة على اقامة العلاقات الدبلوماسية، وفتح سفارات بين بغداد وفرنسا، فقد تم تبادل الهدايا والمصالح المشتركة لكلا الدولتين. من ناحية اخرى، فقد بلغت العلاقات مكانتها الرفيعة في عهد الخليفة المنصور، وملك الإفرنج، وبين الخليفة المأمون والبيزنطيين لاحقاً^(٢).

وتم إنشاء السفارات في زمن الخليفة المقتدر وبيزنطة رغم العداء الذي ساد الدولتين، كما قدم السفراء الى بغداد من امبراطورية الصين والهند، وكانت بغداد في ذلك الزمان تفوق اوربا. وب بدون شك فان الدبلوماسية العربية تطورت في العصر العباسي. فقد تم تأسيس جهاز دبلوماسي من الاشخاص الاكفاء الذين اوكل اليهم صياغه وتحرير الرسائل المرسلة من الخليفة، وتحرير الردود على ما يصله.

كما عمل الديوان العباسي على اختيار سفاراته ومبعوثيه الى الدول الاجنبية، ولأول مرة منحت الدولة العباسية مبعوثيها جوازات سفر دبلوماسية، تضمنت المعلومات الواردة في الجوازات، التي يتم استخدامها في العصر الحديث، فضلاً عن ترتيب استقبال السفراء القادمين الى الدولة، واتخاذ الترتيبات كافة التي يتم توفيرها، ويحظى بها سفراء اليوم، بما في ذلك اعفاوهم من الرسوم الجمركية، والقضاء الجنائي، ومنحهم الحرية الكاملة في ممارسة معتقداتهم الدينية. وقد كانت معاملة العباسيين للوفود الاجنبية القادمة الى عاصمة الدولة تتسم ومبدأ العاملة بالمثل لرعاياها، سواء منهم السفراء المقيمون، او غير المقيمين.

وفيما يتعلق بمعاملة الدولة الاسلامية (العباسية)، لم يعوّث الدول الاخرى، فان المصادر التاريخية، تؤكد ان التاريخ لم يشر الى حادثة واحدة فيها اساءة ارتكبت من طرف الدولة الاسلامية في حق المبعوثين والوفدين الاجانب، منذ ايام الرسول - عليه الصلوة والسلام - حتى انتهاء سلطة خلفاء المسلمين من العرب. بينما حصل العكس من طرف الدول والوفود الاجنبية، سواء في حياة الرسول محمد (صلوات الله عليه وسلم)، او اثناء حكم المأمون.

فعلى سبيل المثال، عندما ارسل الملك ليون (LEON) مبعوثه الى مأمون، تفوه المبعوث الفاظ نابية وغير اخلاقية (استفزازية) في حق الخليفة المأمون، الذي لم يرد عليه، ولم يلحق به اذى، بل ابتسם، وطلب من مبعوث الملك/ ليون، ان يشرح الموضوع الذي جاء لأجله، وتذكر المصادر ان عهد المأمون اتسم بالحكمة والعدل، وان عصره كان ازهى عصور الخلافة العباسية.

كما ذكرت المصادر ان الخليفة المتوكيل هو الخليفة العباسى الوحيد الذى نقل مقر الخلافة من بغداد الى دمشق واقام بها لمدة شهرين. وقد ساد حكم هارون الرشيد التسامح، فقد عهد بتربية ابنه المأمون الى مربين مسحيين، وذُكرت المعلومات ان العرب حين دخلوا إسبانيا، لم يكرهوا أبناءها على اعتناق الاسلام، لكن؛ عندما أخرجوا منها، خروا بين السيف او اعتناق المسيحية، والسبب في ذلك الخلافات التي حصلت بيت العرب والبربر والمسلمين، فضلاً عن فرقة الصف

(١) جريدة الخليج، العدد (٨١٧٦) الصادرة يوم ٧ اكتوبر، ٢٠٠١م.

(٢) د. سموحي فوق العادة، مصدر سابق، ص ٣٠-٣١.

ما ادى الى مزيد من التفكك والتناحر بينهم، وخروجهم من الاندلس مطرودين بعد حياة حافلة بالحضارة استمرت 8 قرون نأمل عدم تكرار ما حدث، وان لا ينشأ خلاف بين العرب والبربر القاطنين شمال افريقيا.

نعم لقد بقىت الدولة الاسلامية معروفة بانها دولة واحدة حتى سقوط الامويين. وظلت حتى نهاية عصر المؤمن دولة واحدة، وعندما جاء العتصم ادخل فيها العنصر التركي، فأصبحت دولة اسلامية مكونة من القوميات العربية، والتركية، والفارسية، وذلك بسبب اعتماد الخلفاء والمقربين منهم على هذه العناصر، مما ادى الى قيام وسيادة العناصر الثلاثة: العربية، والفارسية، والتركية. وشاع بينهم التنافس والنزاع على السلطة، حتى قيام الدولة العثمانية/ التركية. وهكذا؛ انتقلت السلطة من ايدي العرب الى ايدي عناصر غير عربية لكنها اسلامية، وسقطت الخلافة العباسية التي استمرت فترة خمسة قرون واربعة وعشرين عاماً.

الخاتمة

عالجنا في بحثنا، الوجوه المختلفة للدبلوماسية في الاسلام سواء كانت تلك المتعلقة بمفهومها التقليدي كادة حوار بين الامم وقنوات الحوار الاخرى التي ظهرت فيما عد في الميادين الاقتصادية والامنية والتجارية وغيرها وتعددت مهام نطاقها التقليدي حتى اصبحت في ايامنا المعاصرة نسيجاً للتعاملات الدبلوماسية المشابكة.

ان قيمة البحث تنطوي على المعرفة التاريخية للدبلوماسية في الاسلام حيث كانت ولا تزال في الفكر الاسلامي معتمدة على قواعد واصول معمول بها في ايامنا المعاصرة ضمن القانون الدولي العام وبالتحديد القواعد التي سنت في مؤتمر(فيينا).

فكان قد زودت طلبة العلم وقادة الرأي في الاسلام وكذلك المتعلعين في ميدان السياسة من حكام ومسؤولين بالمعرفة المبكرة بالامثلة والدروس الدبلوماسية وكيفية التعامل بها مع الامم الاخرى بشكل لائق وكانت لها وجوداً مميزاً اكده سعة الامبراطورية الاسلامية منذ عام ٦٢٢هـ الى نهاية القرن التاسع عشر .

فكمما اوضحنا، فقد كانت الفتوحات الاسلامية شرقاً وغرباً وشمالاً، مثلت بلاشك قمة الازدهار للدولة الاسلامية، حيث فتحت المغرب العربي في افريقيا على يد القائد الاسلامي عقبة بن نافع، وفتح اسبانيا على يد طارق بن زياد وموسى بن نصیر وضم قرطبة والعاصمة طليطلة الى الدولة الاسلامية واستمرت الفتوحات لتشمل فرنسا على يد عبد الرحمن الغافقي واستمرت الفتوحات الاسلامية في اوربا على يد الدولة العثمانية في القرن الخامس عشر ،

وشرقاً، تم فتح بلاد السند (شبه الجزيرة الهندية) على يد محمد بن القاسم وارمينيا وآسيا الصغرى ثم تم فتح القسطنطينية عاصمة بيزنطة على يد السلطان العثماني محمد الفاتح .

لقد انتشر الاسلام في معظم اقطار الجزيرة العربية والشام والعراق ومصر وشمال افريقيا ونزلت الكثير من القبائل الى هذه المنطقة واستقرت فيها واعتمدت الاسلام ديناً لها كدولة فارس واندونيسيا وافغانستان .

ان كل ماتقدم كان بفضل حكمة ومعرفة الدين الاسلامي في شؤون الدين والدنيا لاسيما في الحقل الدبلوماسي فتعامل بشكل حضاري وراقي مع الامم الاخرى حتى ازدهرت الدولة الاسلامية الى مراحل متقدمة جداً حتى تماهت القوانين الدبلوماسية الاسلامية مع القانون الدولي العام .